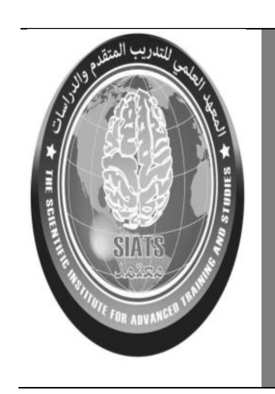


SIATS Journals

Journal of Islamic Studies and Thought for Specialized Researches

(JISTSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk



مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث

التخصصية

المجلد3 ، العدد 2،نيسان، إبريل 2017م.

e-ISSN: 2289-9065

PHILOSOPHY OF RELIGION, SCIENCE AND THE QUR'AN IN KNOWLEDGE OF THE FACTS

فلسفة الدين والعلم والقرآن في معرفة الحقائق

ا م د رعد شمس الدين الكيلاني

قسم الفلسفة الاسلاميه/كلية العلوم الاسلاميه

جامعة بغداد

dr_algailani@yahoo.com

1438هـ – 2017م



ARTICLE INFO
Article history:
Received 8/1/2017
Received in revised form 13/2/2017
Accepted 25/3/2017
Available online 15/4/2017

Keywords:
Insert keywords for your paper

ABSTRACT

This research tackles a dilemma engraved in human thought and moved into the collective mind of Islamic communities. This dilemma is the idea of the clash of science with religion. Although it is true that many facts could never be realised and recognised without science. Yet, does that mean science can play the role of religion in our life? This is the main question around which the research revolves.
The research is divided into two section. The first section studies the relationship between religion and science In the Renaissance and how the latter refuted many of the dominant beliefs that the church adopted.
The research also tackles a similar case in Islamic contemporary culture and thought, related to approaching knowledge in religious texts. The Quran is rich with texts about existence, the creation of the universe, the creation of man, atoms and other important facts and phenomena. The research argues that these texts prove the limited capabilities of the human mind as it mainly reacts to appearances while unseen worlds remain out of reach. It also discusses with analysis the role of Arabic language as a key to understanding the enfolded messages of the Quran. The language and style in the Quran proved validity over ages in addressing the human mind openly and flexibly. From this point the research generates its research nature: studying the scientific miracles in the Quran in a modern logical method.
Section two studies all the scientific issues raised in the Quran and the language through which they are presented. The research also focuses on the theories of materialists in this respect, especially their belief that thought is generated by the senses and that material and senses precede the process of thinking. In replying to these theories, the research proves that thought and mental



awareness are yet deeper and more comprehensive than the world of senses. Mental activities are related to the spiritual power, which remains also one of the scientific miracles on which the Quran sheds light. All these issues are undertaken in an analytical and argumentative manner.



الملخص

يعالج البحث مشكلة تجذرت في الفكر الإنساني وانتقلت إلى الوعي الإسلامي الجمعي وهي ان العلم يتناقض مع الدين ومما لاشــك فيه ان العلم حقق تطوراً نوعياً في معرفة الحقائق، لكن هل يصــلح العلم ان يكون بديلا عن الدين؟واضــطرنا البحث في المشــكلة إلى تقســيم البحث على مبحثين وســتة مطالب غطى المبحث الأول علاقة الدين بالعلم والتطور العلمي بعد النهضــة الأوربية وبين كيف اصــطدم التطور العلمي بالمفاهيم الدينية التي كانت سائدة وتبنتها الكنيسة وأثبت العلم خطأها.

ويعالج البحث قضيه مهمة في الثقافة الإسلامية المعاصرة والفكر الديني على العموم وهي المقاربة المعرفية للوصول الى حقائق المعرفة سواء الدينية ام الوجودية ويؤكد البحث على قضيه يتصور الباحث انها مهمة في تشكيل العقل البشري في ادراك حقائق الوجود وهي ان الحقيقة المطلقة لا سبيل الى الإحاطة بها ابتداء من الذرة اصغر شئ في الوجود الى المجرات مرورا بأنواع الحياة والخلية الحيه ويحاول الباحث ان يستمد تأصيل تصوراته من نصوص القران الكريم التي اثبتت بان العلم البشري محدود وقاصر ويتعاطى مع ظواهر الأمور اما الحقائق فقد استأثر الغيب بها واستدرج الباحث هذا الموضوع الى مناقشة قدرة اللغة واللغة العربية تحديدا على الامساك بخيط معرفي يوصل الى تصــــورات ذهنية حول الحقيقة من هنا كان موضـــــوع الإعجاز العلمي في القران الكريم يعبر عن المجال العملي لممارسة البحث عن الحقيقة بطرق علمية معاصرة

كل ذلك يؤكد على عجز العلم والعقل امام العلم المطلق وبالتالي الاستسلام امام قدرة الخالق العظيم

ثم تحدث البحث عن قدرة العلم على كشــف الحقائق، وكيف ان العلم وتاريخ العلم يؤكد على ظهور مشــكلات في البناء المادي والحياة والوجود وقف العلم عاجزاً أمامها كظواهر تحتاج إلى تفسير علمي حاسم مثل البناء الذري والخلية الحية مروراً بالتكيف والتوافق بين الموجودات في العالم ابتداءً من الذرة إلى المجرة، والعلم يدعي أن وجود التوافق والتكامل في الخلق جاء نتيجة عمل ميكانيكي بحت لا ســـبيل إلى إقحام فكرة غيبية ميتافيزيقية غير خاضعة للتجربة والملاحظة في عملية الخلق والوجود،



وفي المبحث الثاني تعرض البحث إلى المنهج القرآني في عرض الحقائق العلمية، وابتدأ بالمطلب الأول في بيان دور اللغة في عرض الحقيقة وكيف وظف القرآن الكريم اللغة العربية التي نجحت في إيصال الجزء الأكبر من الحقائق إلى المتلقي عن طريق نظام لغوي مفتوح في فضائه المعرفي،

وتعرض البحث إلى علاقة الفكر باللغة، وكيف ان اللغة مع الملكة في الإنسان استطاعت أن تحدث نقله نوعية في حياة الإنسان وتجعله سيد الموقف على الموجودات والبيئة عن طريق نقل الخبرة وتفعيلها، وناقش البحث مقولة الماديين بأن الفكر يتولد من الحواس، وان المادة والحواس سـابقة للفكر والوعي وأثبت ان الفكر والوعي أعمق من الحواس وأوسـع وهو عملية مرتبطة بالطاقة الروحية أو الفطرة. وعلى هذا فإن الفكر يعد سمة من سمات النشـاط الروحي المرتبط بقدرة وحكمة الخالق العظيم،وتعرض إلى موضـوع الإعجاز العلمي الذي عبر عن المثال العملي للمنهج القرآني وكان منهج البحث منهجاً تحليلياً اعتمد على مراجع علمية حديثة وارتبط بثوابت متفق عليها بين علماء المسلمين وكل ذلك لخدمة الدين والقرآن الكريم.



المقدمة :

البحث عن الحقيقة شكل الإطار العام لحياة الإنسان على الأرض وكانت التساؤلات الكامنة في عمق النفس الإنسانية تسبب قلقاً معرفياً يدفع بإتجاه المجازفة والحركة بإتجاه المجهول ليحكم سيطرته عليه بعد معرفته فالمعرفة قوة مرنة وهذه إحدى معالم قضية التسخير وهو القانون الإلهي الذي منحه الله للإنسان الذي رشحته السماء للخلافة في الإعلان الإلهي في قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) البقرة 30 والمعرفة كانت سمة مميزة للإنسان فهو شغوف بها مستعد لبذل مايملك للوصول إليه ولما كانت كذلك قال بعض علماء الكلام :إن أول الواجبات النظر . لأن به يعرف الله ومعرفة الله أول الواجبات، ولذلك عرف المناطقة الإنسان بالحيوان الناطق والناطق تعني المفكر لأن اللغة وعاء الفكر ، فهو الحيوان الوحيد الذي لايتوقف عن التفكير أو يتميز بالتفكير وعلى هذا الأساس بنى ديكارت مقولته المشهورة (أنا أفكر فأنا موجود) ويعني بأن الفكر هو الأساس أو الفصل ضمن الكليات الخمس في اصطلاح المناطقة الذي يفصل بين الأنواع, وعلى هذه المقاربة حاول الباحث أن يعالج أو يعطي معالجات المشكلات التي بدأت تضغط على واقع الفكر الإنساني وتحاول إغفال الحقائق الواضحة وظهر هذا بعد الثورة العلمية في الغرب تحديداً وفي مجال العلوم الطبيعية وفلسفة العلوم التي احدثت نقلة نوعية في حياة الإنسان على الأرض أدت إلى ظهور تيارات إرتفعت فيها الأنوية (egocenterisim) بشكل تجاوز حالة التوازن , وبعد إن كانت فكرة وجود الاله تهيمن على الحياة تطور الوضع بعد عصر النهضة ليضع الإنسان في أعلى سلم الوجود وظهرت النزعة الإنسانية (humanisim)و بالتدريج تحولت التصورات المادية للظواهر الطبيعية إلى أن تكون هي الإطار الأيديولوجي للحياة الإنسانية بدل الدين ثم حل الإنسان محل الآله ثم بعدها تحركت المفاهيم وإنزلقت الإنسانية نحو هاوية العدمية وتم الغاء المرجعيات القيمية والعقائدية وتحول كل شيء الى النسبية، العقائد نسبيه والحقائق نسبية ولاتوجد مرجعيه يقاس عليها وتعومت الحياة في فضاء سائل لا وجود له الا في الاعتبار الذهني والعقلي ثم اخذت الإنسانية تعيش حاله الملل وتسرب اليها الياس وتحولت القيم الى اشياء باردة وتشيأت الحياة وماتت الروح ويحاول الباحث ان يسلط الضوء على جذور قضية الصراع بين الدين والعلم ثم الوقوف علىء قضيه قدره الانسان بامكاناته ووسائله المتاحة للوصول الى الحقائق ويكشف البحث بان العلم البشري قاصر عن ادراك الحقيقة المطلقة مصداقا لقوله تعالى: (يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)



الروم / 7 . وان القدرة الالهية خلقت الوجود بصورة معقدة ومركبه تودي عند التفكير في آيات الكون الى ان هذا الكون المترامي الاطراف لايمكن ان ياتي عبثا او صدفه وان الغاية ودقه التصميم والعناية المستمرة والايجاد من العدم والحدوث والتغير كل ذلك يدل بوضوح على الخلق المباشر وان العقل لايحتاج الى عناء للوصول الئ هذه الحقيقة، عند النظر بحيادية مصداقا لقوله تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ال عمران 191/190 وان النظر في الآيات الكونية سيؤدي حتما الى الايمان بالخالق العظيم لكن الألفة بالظاهر جعلته يستبعد النظرة الإيمانية ويتمسك بالنظرة المادية ويسند كل ماموجود في الكون من آيات عظيمة إلى الأسباب والمسببات وإغفال القوى التي تقف خلف هذه الأسباب ونفي القصدية والغاية من الخلق , وبذلك دُفع الإنسان للتخلي عن مسؤؤليته الأخلاقية ويحاول الباحث التماس طريق الحقيقة بالربط بين آيات القرآن الكريم وآيات الخلق العظيم عن طريق التفكرواللغة وهو المنهج القرآني الذي تجلى في موضوع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي توقف عنده الباحث , وهو جهد متواضع لتسليط الضوء على المنهج القرآني في طلب العلم والمعرفة ، وهذا لايعني إن اثبات القصور العقلي سيؤدي إلى طوباوية وجهل مركب وهو مع الأسف يحدث اليوم في عا لم المسلمين نتيجة الجهل بالسنن وإهمالها وهي متاحة لحركة الإنسان وأن تحرير العقل من الغرور ووضعه في إطار أخلاقي من شأنه أن يكبح جماح الإندماج بإتجاه التوظيف السلبي للظاهرة العلمية التي هي هبة إلهية للإنسان . ونرجو أن يكون الباحث قد وفق في فتح فضاء معرفي مستمد من المنهج القرآني في التطور المعرفي والإنسجام الروحي وهو أمر تفتقر إليه الحركة العلمية في أكثر صورها السائدة اليوم وتحتاج اليه التصورات المعرفية الاسلامية ونسأله تعالى أن ينفعنا بما علمنا ويعلمنا ماينفعنا وآخر دعوانا أنه الحمد لله رب العالمين.



المبحث الأول: الدين والعلم.

المطلب الأول: هل الدين ضد العلم؟

منذ بدايات النهضة الأوربية في القرن السادس عشر الميلادي ظهرت بوادر صراع بين الدين والعلم وتضمن هذا الصراع حتى استقر في الوعي الإنساني أن الدين ضد العلم، وانتقل هذا التصور إلى العالم الإسلامي.

لهذا السبب واجه الخطاب الديني تحديات كبيرة، وخطاب الإعجاز العلمي على الخصوص أيضاً لأنه يوظف العلم الحديث لتعزيز الخطاب الديني ولذلك تعرض موضوع الإعجاز في بلاد المسلمين موجة من الاعتراضات التي لا ترى فيه سوى نزول بالدين إلى مستوى العقل البشري، وإن الوحي الإلهي الذي يعبر عن خطاب الله المتعالي للإنسان لا ينبغي أن يرتبط بالعقل البشري وأوهامه، وهذا الموقف كان يعبر عن الاتجاه الديني التقليدي أما الاتجاه العلماني فإنه كان يرى بأن هذا الموضوع من الخطاب تلفيقي وفيه الكثير من الادعاءات الكاذبة والأوهام، ولكن مع مرور الزمن أدرك الكثير بأن خطاب الإعجاز العلمي يعبر عن ثقافة العصر وأن العلم الحديث الذي نشأ في عصر النهضة الأوربية كان قد نشأ على انقاض الدين، فكانت ثمة جذور لصراع متوهم بين العلم والدين.

تحدى العلم الحديث تعاليم الدين المسيحي وأصبح العلم الحديث يشكل ركناً هاماً في مناهج التعليم في المدارس على اختلاف مراحلها، وخلق جواً فكرياً لم يجد الكتاب على اختلاف مشاربهم بدلاً من الإشارة إليه أو البحث في أسسه فضلاً عن انه غيّر من التصور الفلسفي للعالم.. وتغيرت مناهج البحث العلمي وحياة الناس عموماً وزخرت الكتابات في القرنين السابع عشر والثامن عشر بقيام تغيير هام في اتجاهات الناس، وظهور نزاعات فكرية مبتكرة لم يكن للعلم وتاريخه سابق عهدٍ بها.

لقد ظل الفلاسفة والعلماء في القديم مقتنعين بأن الأرض ساكنة ورأوا انه من المحال أن تدور بعض أجسام السماء حول بعضها الآخر، وأن تكون الأرض ذاتها متحركة.. ولقد ساعدت بضعة اختراعات آنذاك على اذكاء البحث العلمي، وواجهت الحركة العلمية أنظمة علمية قديمة عفا عليها الزمن فصار على العلماء أن يستبدلوا بها علماً جديداً، ويذكر هيويل أحد مؤرخي الحركة العلمية في كتابه تاريخ العلوم الطبيعية والبايولوجية إن العلم يزدهر خلال الفترات الاستقرائية(Inductive periods) ، ويذهب أندرو ديكسن وايت إلى أن الدين كان واحداً من العوامل التي اخرت بالعلم)[1].

---

[1] ينظر: العمر، د. عبد الله العمر، ظاهرة العلم الحديث، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت، سنة 1983 : ص6 وما بعدها .



وهكذا خضع العقل الغربي إلى مقولة إن الدين ضد العلم وذلك بسبب ممارسات الكنيسة وتبنيها لآراء علمية أثبت التطور العلمي خطأها.

وحاولت الكنيسة بعد معركة عنيفة بين العلم الحديث والآراء العلمية الخاطئة التي كانت تتبناها الكنيسة حاولت المبادرة إلى تصحيح المقولات الخاطئة، وأطلقت عملية عقلنة للاهوت وهو التكيف لمعطيات العلم الحديث وأثره في تطور الرؤية العامة للمجتمع، وظهرت محاولات في الغرب لتوظيف الكشوفات العلمية لتعزيز الإيمان ولكن بتجاوز المشكلات التي يثيرها النص الديني في الكتاب المقدس ومن هذه المحاولات ما كتبه الكسس كاريل في الإنسان وذلك المجهول وكريسي موريسن في الإنسان لا يقوم وحده وكتابات كولن ولسن في مجال القوى الميتافيزيقية، وبذلك حقق العلم الحديث نصراً انحازت له وبسببه وبسبب الفتوحات العلمية مراكز القوى في المجتمع الغربي، وسادت الفلسفة العلمانية، وتراجعت سلطة الدين والكنيسة في الغرب، وانطلق العلماء والباحثون في مجال العلوم الطبيعية يحققون نصراً بعد نصر وفتحت أمامهم أسرار الكون، وظنوا بأنهم وصلوا إلى الحقيقة وانه لا يوجد سلطان فوق سلطان العلم، ومن هنا بدأ الصراع بين العلم والدين، وكان العلم قد خطا خطوات متسارعة باتجاه تفسير الظواهر الكونية وإرجاعها إلى أسباب مادية بحتة، وبقي الدين يتمسك بمفاهيم ومقولات لم تعد تقنع التيار العلمي السائد، إذ كانت تعاليم الدين تقول بأن السماء قبة صلبة تحيط بالأرض، وإن الأجسام السماوية مصابيح معلقة.. وقد عمد رجال الكنيسة على دمج التعاليم الدينية بنظريات بطليموس الفلكية، وكما رأى ديكسن وايت ان الشائع في الفكر المسيحي المبكر هو ان الدمار لابد آت على الأرض وان أرضاً وسماوات جديدة ستخلف الأرض التي نعيش عليها، وان علم الفلك إذا ما قال غير ذلك باطل كغيره من العلوم الأخرى التي أدانتها الكنيسة ولعنتها)[2].

كانت الخلفية التي قام عليها العلم تستبعد وجود عالم غير مادي وغير خاضع للأسباب ومسبباتها، وكذلك استُبعدت الغائية أي أن هناك قصداً وغاية للخلق والوجود بعلاقاته وترابطه الميكانيكي، وبذلك تم استبعاد فكرة الخلق والخالق وفسرت الظواهر الطبيعية على أساس تفاعل بين مكونات الوجود ولا دخل لشيء غيبي وغير مادي في وجودها أو ظهورها، وظهرت فكرة اللامركزية وغياب المقدس، وحدثت هزة عنيفة في المعتقدات السائدة بين مؤيد ورافض لظاهرة العلم (وها هو رجل الكنيسة الدومنيكاني كاسيني يدعو المناصرين لآراء جاليلو إلى الابتعاد عن النظر إلى

[2] ينظر: العمر، د. عبد الله / م. س : ص35 .



السماء بقصد معرفة المزيد من حقائق علم الفلك لأن في ذلك جرماً عظيماً .. وإن علم الهندسة من عمل الشيطان، وإن الرياضيات حصيلة فكر الملحدين.

أما الأب لوريني فقد صرح بأن مذهب جاليلو كفر وإن في تعاليمه إلحاداً وان جزاءه القتل لا محالة.. ولعل الناظر في عبارات المناوئين للعلم يجد عبارات وكلمات قاسية يطلقونها على كل من وقف نفسه للبحث والابتكار العلمي. وقد ذكر تقرير أعده جماعة من رجال الكنيسة في دراسة فرضية جاليلو، وأجمعوا على ما يأتي: إن القضية الأولى بأن الشمس هي المركز وإنها لا تدور حول الأرض حماقة وسخف وخاطئة من الناحية الدينية وبدعة لأنها معارضة للكتاب المقدس صراحة، أما القضية الثانية بأن الأرض ليست مركزاً وإنما تدور حول الشمس فهي سخيفة وخاطئة من الناحية الفلسفية ومعارضة للإيمان الصادق من الناحية الدينية على الأقل)[3].

وبذلك دخلت قضية العلم في أسس النظرة الجديدة للكون والحياة، وافترقت عن النظرة الدينية، ويرى المؤرخ هانز بارون بأن التغيرات في الحياة الاجتماعية والسياسية متداخلة مع التغيرات في النظرة العلمية: (ولقد أتى على الناس حين من الدهر ظنوا خلاله ان في احداث الكون رتابة بفضل ما أودعه الله في الطبيعة من ثبات، ولكن نظرة جديدة وجدت طريقها بعد ذلك إلى أذهان الناس وتصوراتهم، إذ شاعت بينهم فكرة اللامركزية في الكون الواسع الذي لا تحده حدود، صارت نظرة الناس إلى الأحداث نظرة ديناميكية لا استاتيكية تماماً مثل نظراتنا نحن اليوم إلى طبيعة الأحداث في عالم يتطور على مر الزمن)[4].

لقد حقق العلم تقدماً كبيراً على مستوى تغيير النظرة في الحياة وتبدلها تجاه الخلق والوجود، وتعززت ثقة الناس بالتطور العلمي، وأصبح الناس ينظرون إلى العلم على انه دينٌ جديدٌ، وحدث إفراط في الثقة بنتائج العلم، وأصبح سمة عامة للعصر الحديث (أي من جاليلو إلى وقتنا الحاضر، فالاعتقاد بأن لدى العلم الإجابة على كل سؤال .. قد بلغ من الانتشار حداً جعل العلم يضطلع بوظيفة اجتماعية كانت في الأصل من مهام الدين، ففي حالات كثيرة حل الإيمان بالعلم محل الإيمان بالله)[5].

لقد كان هذا الحراك بين الدين والعلم في بيئة الغرب، ولكنه بسبب تطور العلوم والاتصال تم نقله إلى العالم أجمع، ومن المؤسف أن ينتقل هذا الفكر إلى العالم الإسلامي الذي كان يخضع لمعادلة تختلف عن المعادلة التي تحكم العالم

---

(3) ينظر: العمر، د. عبد الله، م. س : ص42 . 44 .

(4) ينظر: العمر، د. عبد الله، م. س : ص111 .

(5) هانز ريشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية الحديثة، ترجمة: فؤاد زكريا : ص54.



الغربي، فإن الملاحظة الثابتة في العالم الإسلامي انه في ظل الدين الإسلامي حدثت نقلة عظيمة وتطور قياسي في مجالات العلوم الطبيعية.

المطلب الثاني: العلم والحقيقة.

يقول هيدجر: (إن العلم لا يفكر في ذاته)[6]، وهكذا ينقل عن الفلاسفة لأن العلم يكتشف العلاقات ويصفها ويصف القوانين التي تربط بين الظواهر ووجودها، ولكن لا يمكن أن يؤسس الظاهرة ولا يملك القدرة على التفكير والاستنتاج، فمثلاً ذرتين هيدروجين مع ذرة أوكسجين تنتج عن طريق التفاعل الكيميائي جزيئة ماء، ولكن العلم لا يتدخل بالقانون الفيزيائي الذي يتولد من العلاقة بين الذرتين ولا يدرك كيف ولماذا وإنما يصفه ويستطيع أن يعمم هذا القانون ويقرر بأن تكرار الظروف والمكونات تنتج الحالة المكتشفة عن طريق الملاحظة العلمية، وكذلك عندما نجد أن الحرارة تكون سبباً في تمدد المعادن لا يمكن للعلم أن يؤثر في التمدد إلا عن الطرق المعروفة عن طريق الاستقراء أو التجارب، فلا يدخل العلم في التجربة وإنما يصفها وهذا هو المذهب التجريبي ولكن في المذهب الاستنباطي يستطيع الفكر الوصول إلى نتائج عن طريق القياس أو الاستنباط بربط القضايا مع بعض والوصول إلى نتائج معينة، لكن الطريقتين الاستقراء والاستدلال لا تعطينا تصوراً للمناسبة المؤثرة والغاية من هذا الترابط، وهو الأمر الذي استبعده العلم في منهجه في النظر إلى العلاقات المترابطة بين الموجودات، فالعلم يبقى ظاهرياً في نظرته أو ستاتيكياً بحسب التصنيف العلمي والمنظور الستاتيكي هدفه اكتشاف ظاهرية حقائق الأشياء، أما المعرفة الديناميكية فهدفها الوصول إلى معرفة عميقة لاكتشاف ما وراء الظاهرة أو الحقيقة في الظاهرة، فالعلوم الستاتيكية تحتاج إلى نور هداية وفي المنظومة المعرفية العلمانية توحدت الفلسفة الغربية بعد اندحار الكنيسة كمؤسسة علمية دينية، وظهرت مفاهيم على أن الذي يمنح السعادة للإنسان هو البحث العلمي في المادة والكون ولكن العلوم الطبيعية لا توصل إلى السعادة الحقيقية؛ لأنها فاقدة لعنصر أساس من جوهر المعرفة وهو قضية الإيمان بالمطلق خارج حدود العقل وقدراته لمحدودية العقل، كما أثبت هذا المفهوم ايمانويل كانت الفيلسوف الألماني في كتابه نقد العقل الخالص وكتابه نقد العقل العملي، وكذلك يذكر كريسي موريسون: اننا نستطيع أن نضع نظرية تبين كيف تطورت جميع الكائنات الحية من الخلية الأصلية لكن العلم يقف عند هذا الحد..

---

[6] د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت : ص11 .



إن العلماء لا يقدرون أن يؤكدوا أو ينفوا وجود الله.. وهم جميعاً يعلمون أن الإلهام لا يأتي من المادة.. إن أية ذرة أو جزيء لم يكن له فكر قط وأي اتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأي أبداً.. فما هو الكائن الحي؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات أجل، وماذا أيضاً؟ شيء غير ملموس أعلى كثيراً من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء)[7].

نجح العلم في مسيرته للوصول إلى دقائق وتفاصيل عميقة في تكوين الوجود المادي، ولكنه بقي بعيداً عن الحقيقة المحركة والفاعلة لهذا الوجود المادي وعن القوانين المحكمة التي تربط هذا الوجود والتي لا يمكن تغافلها أو تجاوزها، وإن أهم صفة في العلوم المعاصرة يمكن أن نحللها إلى سبب عدم قدرة العلم على الربط بين العلة الغائية أو القصدية في وجود الظواهر الطبيعية أو ترابطها المحكم، فالعلم على أساس هذه الرؤية يمثل رؤية سطحية static ، وإن الدافع الأساس في تبنيه لهذه النظرة هو ذاكرة مثقلة بالصراع بين الدين والعلم بحسب الرؤية الغربية.

وفي النظرة الاستاتيكية يُستخدم العقل والاستدلال العقلي ولكن في النظرة الداينميكية يُستخدم القلب أو الفؤاد وهو القوة الباطنة للوعي الروحي، ولذلك يركز القرآن الكريم على هذه القوى الروحية بالإضـــافة إلى قوى الحس فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[8]

فالعلوم الظاهرية أو الستاتيكية تحتاج إلى نور هداية أو خطاب يحقق الرضا الداخلي بالإضافة إلى الأثر الظاهري فتتحد الديناميكية والستاتيكية للوصول إلى حالة الارتباط الإيجابي لمعرفة حقائق الأشياء والظواهر الطبيعية.

إن وظيفة الإنسان في الوجود ليست فقط المعرفة ولكن لابد لهذه المعرفة من أن تجد غايتها في الوصول إلى استقرار نفسي وطمأنينة وبدون هذه الطمأنينة ستزداد معاناة الإنسان وتتعمق مأساته، وكما أن (الإنسان ليس مجرد كائن يعيش وجوده بل هو فوق ذلك كائن ينزع نحو فهم الوجود .. وإن الإنسان عندما قطع هذه الرحلة الطويلة من الحياة ومن عمر الزمان وهو يعني أكثر ما يعني نفسه بنتاج العقل وبنتاج التفكير دون أن يعني نفسه بواقع العقل وبواقع التفكير)[9].

وهذا يعني إن الإنسان يرتبط ارتباطاً فطرياً بالباطن والشعور الداخلي ويعني في تطور الفكر، إن الفكر والعلم ركزا على النتائج والحصيلة، أما عملية التفكير في ذاتها لم تخضع للدرس أو تم تجاوزها بسبب العجز عن فهمها، ويحاول الإنسان أن يحقق سعادته في ربط نتائج العقل مع هذا الشعور الداخلي، ولما كان مسار التطور

---

(7) ينظر: كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ترجمة محمود صالح الفلكي : ص203. 204 .

(8) سورة الإسراء : الآية (36) .

(9) الخديم، المرابط ولد محمد، دين الفطرة : ص28. 29 .



العلمي قد ارتبط بالغرب فإن العلم الحديث يرفض أن يربط بين العقل وما وراء العقل، ولذلك استقر عندهم أن الواقع وجد قبل الفكر وإن الفكر تولد من الحواس ولا شيء غيرها: (وهذه الطريقة العقلية التي أقرها العلم الحديث لم يستفد منها نتيجة لمنطلقه الخاطئ الذي ينكر أن لهذا العقل خالقاً خلقه من العدم، ولذلك قالوا ان انعكاس الواقع على الدماغ هو العقل فهو الذي أوجد الفكر .. وما يذكره الغربيون من أن الإنسان الأول في العصر الحجري كان يبحث عن طعامه، فيستعمل الأدوات الحجرية لقطف الثمار وصيد الأسماك ودفع أذى الوحوش، فهذا إذا صح فإنه شيء يتعلق بإشباع الغرائز ولا يتعلق بالفكر أي يتعلق بالتميز الغريزي ولا يتعلق بالإدراك الفعلي .. والحاصل ان الحواس تنقل صورة عن الواقع المادي إلى الدماغ، وبذلك يتم الإحساس بالواقع فقط ولا ينشأ عن ذلك التفكير بل تميز غريزي يشبع يتألم يلتذ .. وعليه فالفكر أو الإدراك أو العقل هو نقل الواقع عن طريق الحواس إلى الدماغ مقترناً بمعلومات سابقة تعين على تفسير هذا الواقع .. ولهذا أخطأ علماء المادة فلم يدركوا أن وجود معلومات سابقة عن هذا الواقع شرط ضروري لوجود الفكر أي شرط ضروري لوجود العقل، فالفكر ليس انعكاساً للواقع من الدماغ ولا من انطباع الواقع على الدماغ؛ لأن الانعكاس يحتاج إلى وجود قابلية الانعكاس في الشيء الذي يعكس الأشياء كآلة التصوير فإنها تحتاج إلى قابلية الانعكاس عليها فلابد من التفريق بين الإحساس والانعكاس فالمسألة هي احساس وليست انعكاساً فلا الدماغ يملك الانعكاس ولا المادة، وإن الذي ينتقل هو الإحساس بالمادة إلى الدماغ بواسطة الحواس .. وبعد ذلك تكون عملية الربط والاستنتاج التي ينجزها العقل بعد الإحساس بالواقع .. ولعل ما ذهب إليه لتراوسكارلندج عالم الفسيولوجي يكشف جانباً من هذه المغالطات بقوله: أما المنشغلون بالعلوم الذين يرجون الله فلديهم متعة كبرى يحصلون عليها كلما وصلوا إلى كشف جديد، إذ ان كل كشف جديد يدعم إيمانهم بالله ويزيد من إدراكهم وابصارهم لأيادي الله في هذا الكون .. وبذلك يتحقق إدراك الفجوة بين التفسير العلمي للظواهر والحقيقة فيؤكد رسل ذلك بقوله: ليس في عالم الطبيعة ما يبرهن على ان الخصائص الذاتية للعالم الطبيعي تختلف عن خصائص العالم العقلي)[10].

ورسل في هذا التقرير يؤكد على أن العقل عاجز عن إدراك حتى عالم المادة وعلم الرغم من ان عبارته تدل على ان قوانين العقل هي نفسها قوانين المادة ولكن العلم حتى في عالم المادة وصل إلى حالة من الألغاز التي يصعب معرفة حقائقها!

[10] ينظر: الخديم، دين الفطرة، م . س : ص28 . 35 .



فضلاً عن عالم الحياة والفكر أو العقل؛ لأن النظر بعمق في عالم المادة يؤدي إلى حالة من الذهول أمام عالم متقن ومحكم بروابط وعلاقات متناهية الدقة والإحكام ابتداء من عالم الذرة ومكوناتها إلى عالم المجرة وكواكبها، فالحركة والدقة والانتظام تقود حتماً إلى عناية معجزة من لدن قوة جبارة! ولذلك ستجد أن (أعظم قوى الطبيعة هي تلك غير المرئية، ونجد ان أعظم قوى الإنسان هي غير المرئية أيضاً، والطريقة الوحيدة التي يمكن أن تتجلى بها قواه الروحية هي عبر التفكير وهو النشاط الوحيد للروح، والفكرة هي النتيجة الوحيدة للتفكير ولكل فكره تأثيرها على عضو فيزيائي على أجزاء الدماغ أو على عصب أو عضلة)[11].

عند هذا التصور سنجد ان الإنسان يقف عاجزاً أمام ألغاز الوجود وليس له إلا التسليم والإيمان بقوة حكيمة تدبر له ما يعجز عن الإحاطة به من الذرة والخلية إلى سلم الوجود المتصاعد فإن الحقيقة المطلقة تبقى لغزاً أمام لغز العقل المودع في الإنسان وهنا نستعير مقولة انشتاين في تصويره للعلاقة بين العقل والوجود والخالق بقوله لسائل يسأله عن الوجود: اسمح لي أن أضرب لك مثلاً ان العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب عاجز عن الإحاطة بالكون فكيف بخالقه؟ نحن أشبه ما نكون بطفل دخل مكتبة كبيرة وفيها كتب مؤلفة بشتى اللغات، إن هذا الطفل يعلم ان شخصاً ما كتب هذه الكتب لكنه لا يعرف بالضبط من هو ولا كيف كانت كتابته لها ثم هو لا يفهم اللغات التي كتبت بها)[12].

المطلب الثالث: جذور فلسفة العلم.

كانت أهداف الحركة العلمية الوصول إلى يقين حاسم وتقديم تفسير للحقيقة لا يتعرض للاختراق، ولكن الفلسفة العلمية تعرضت إلى حالات من التداعيات أدت إلى تغيير في مسارات فلسفة العلم وأولوياتها، وفي البداية كانت المفاهيم العامة للفلسفة العلمية تؤكد على أن المنطق أو قانون العقل هو الأساس المعياري لإثبات الحقائق العلمية ولكن هذا القانون توقف عن القدرة على مواكبة حركة الفكر وتحول إلى قواعد عقلية جامدة تدمر الفكر وتحجم حركته بالأطر المنطقية للقضايا والمحمول والموضوع الذي كاد أن يقضي على المنهج التجريبي، ولكن المنهج التجريبي استطاع أن يتجاوز المنطق الأرسطي وقواعد الاستنباط لأن الأخيرة تشتغل في مجال اللغة والعلوم الإنسانية والتحليل

---

(11) هانل، تشارلز. ف، المفتاح الكوني، ترجمة أيمن الحوراني : ص15 .

(12) الخديم، المرابط ولد محمد، دين الفطرة، م . س : ص36 .



النظري ولا تعمل في مجال العلوم الطبيعية، وظهر تيار التجريب وأصبح (أساس المعرفة هو التعميم.. فالتعميم هو أصل العلم .. ويلجأ العلماء بعد الملاحظة إلى التفسير استدلالاً من الملاحظة، وعلى ذلك فالقوانين العامة يمكن أن تستخدم في الاستدلالات التي تكشف وقائع جديدة ويصبح التفسير أداة لتكملة عالم التجربة المباشرة ويؤدي التفسير الناجح لكثير من الظواهر الطبيعية إلى تكوين ميل إلى زيادة التعميم في الذهن البشري.. ولكن من الملاحظة ان هناك تعميمات زائفة، ومن هذه التعميمات الخاطئة ان العقل يتحكم إلى حد بعيد في الأفعال البشرية، وكذلك ملاحظة طاليس بقوله: (ان الماء جوهر الأشياء ولكن نظرية طاليس هذه معقولة من حيث انها تتخذ من جوهر مادي حجر البناء لكل المواد الأخرى)[13]، وما يذكر راينشنباخ يخضع لجذور فلسفة العلم الرافضة لكل تفسير يرتبط بأمور غير مادية فهو ينقد مقولة طاليس بأن الماء جوهر الأشياء ثم يقبلها لأنها تتخذ جوهراً مادياً كحجر بناء لكل المواد الأخرى ـ بحسب تعبيره ـ وتتخذ الفلسفة العلمية موقفاً واحداً تجاه المشكلات التي واجهتها بإحالتها إلى التفسير المادي للوجود، ويعترف رايشنباخ: (بأن العقل يبدو قادراً على كشف الخصائص العامة للموضوعات المادية)[14].

ويحاول العلم الابتعاد عن مواجهة مشكلات حقيقية لا يوجد لها تفسير عن طريق النقد مع عدم تقديم بديل للتفسير العلمي، كما يذكر رايشنباخ: (ان الفيلسوف عندما يصادف أسئلة يعجز عن الإجابة عليها يشعر بإغراء لا يقاوم لكي يقدم إلينا لغة مجازية بدلاً من التفسير)[15]، ورايشنباخ في كلامه يحاول أن يدافع عن المنهج المادي بطرق جدلية عقلية لا علاقة لها بالمنهج المادي.

ويقدم فلاسفة العلم الحديث تفسيرات عديدة لتجنب الاعتراف بوجود قوى غير مادية تؤثر في الوجود المادي وترسم مساره.

وقد (شهدت نهايات القرن العشرين أسساً وصياغات رياضية لنظريات وفروض حيوية خصوصاً في مجال البايو فيزياء (الفيزياء الحيوية) والهندسة الوراثية وما إليها، وحدث تعاون بين الرياضيات وبعض فروع العلم الحيوي ولكن لم تستطع العلوم الحيوية بلوغ التكميم الدقيق الذي بلغته العلوم الفيزيوكيمياوية، ومع هذا اندرجت علوم الحياة في نسق العلم الحديث، وكان رواد العلوم الحيوية ينظرون إلى الجسم الحي نظرة ميكانيكية أي بوصفه آلة ميكانيكية، وبذلك

---

(13) ينظر: رايشنباخ هانز، نشأة الفلسفة العلمية، م. س : ص23 . 28 .

(14) رانشنباخ، هانز، نشأة الفلسفة العلمية / م. س : ص33 .

(15) النشأة الفلسفية العلمية، م. ن : ص39 .



بالإمكان القول ان فلسفة العلوم الحديثة ترتد في النهاية إلى مبدأ الفيزياء المادة والحركة ولكن في المقابل كانت هناك نظرتان تعارض التفسير الميكانيكي وهما:

1. افتراض القوى الحيوية في الأجسام العضوية أي قوى غير مادية.
2. افتراض الغائية في الكائنات الحية بسبب ما بدا فيهما من تكيف طبيعي يوحي بأنها تهدف قبلاً إلى تحقيق غاية مقصودة.

وحاول أبو الفسيولوجيا الإحاطة بالتفسير الحيوي والقصدي بقوله: (إن الكائن الحي مجرد آلة مبنية بصورة ما من شأنها أن توجد اتصالاً بين البيئتين الداخلية والخارجية.

وهو بذلك يقرر بأننا نستطيع أن نحلل الآلة الحية كما نحلل الآلة الجامدة لكل جزء من أجزائها دوره في الإطار المتكامل، أما الغائية في علم البيولوجيا العام الذي يدرس ظاهرة الحياة على سطح الأرض، فقد أطاحت بها نظرية التطور لتشارلز دارون (1809 ـ 1882) حين وضعت تفسيراً آلياً لنشأة الكائنات الحية وتطورها وبقائها واندثارها.. وقد أتى دارون بكم هائل من الشواهد التجريبية والأسانيد النظرية لغرض التطور بحيث ان نظريته هي النظرية الوحيدة في ميدانها ـ وحتى الآن ـ التي تنسجم مع الفيزياء بل هي قائمة عليها بلا تحفظات، واعتبرت نظرية التطور ان أي تفسير لظاهرة الحياة خارج هذه النظرية سيكون خارج نطاق العلم الطبيعي، وهكذا استوعب نسق العلم الحديث بمثاليته الصارمة سائر علوم الحياة ولم تبق إلا الدراسات الإنسانية، وكما يذكر الفيلسوف الإنكليزي اسفيا برلين المعني بالدراسات الإنسانية (1909 ـ 1998) (هل ثمة اعتراض من حيث المبدأ على اننا يمكن أن نكتشف يوماً ما قوانين قادرة على أن تعطينا تنبؤات في نفس دقة تنبؤات العلم الطبيعي؟ إذن لابد من العمل على كشف هذه القوانين بواسطة بحوث في الإنسان على قدر كاف من الحذر والخيال، وسار على هذا الطريق المتخصصون في العلوم الإنسانية علم النفس والاجتماع وغيرها في محاولة لتحقيق هذا الحلم، ومن هؤلاء أوكست كونت (1798 ـ 1857) وكذلك العالم التنويري كوندرسيه ومعه سان سيمون اللذان أكدا إن الإنسان ليس فريداً ولا يحتاج إلى معالجة فريدة، بل هو قاطن بين مملكتي الحيوان والنبات يخضع مثلها لقوانين عامة ومن أجل كشف هذه القوانين دعا كونت إلى إنشاء الفيزياء الاجتماعية التي تدرس المجتمع بمنهج العلم الحديث .. وبالمثل تخلص علم النفس تباعاً من مفاهيم الروح والانا الترانسنتدالية والوعي التحتي والإدراك اللاواعي والجوهر العقلي،

وانتهى مفهوم القوى العقلية المرادفة السايكولوجية لمفهوم القوى الحيوية، وهكذا انتظمت العلوم في ثلاث مجموعات كبرى هي العلوم الفيزيوكيمياوية ثم الحيوية ثم الإنسانية، ولهذا كانت الفيزياء في المقدمة)[16].

وعند التحقيق في هذه المسألة نجد ان انحياز فلسفة العلم الحديث باتجاه حاسم نحو المادية، وإنكار كل ما عداها أدى بالضرورة إلى تبني مواقف لم يحسمها العلم نفسه، وادعى الكثير من أنصار هذه النظرة دعاوى لم يتم التأكد منها، ولم تخضع للدرس العلمي بحيادية فدارون نفسه لم يتعرض إلى أصل الحياة، بل كان مشروعه ينصب على دراسة الأنواع وعلاقتها بالبيئة والتكيف أو ما يسمى بالانتخاب الطبيعي حتى ان لامارك قبل دارون قد تبنى مفهوم التطور أكثر صراحة من دارون وغيره.

وفي عالم الحيوان يدرس نموذج زرافة لامارك الذي قال بالتغير في الصفات نتيجة الإهمال أو الإفراط[17] ـ سفج، وكذلك ما حاوله الطبيعيون من ربط الظواهر الحيوية بالفيزياء أو التفسير المادي للحياة فهو فرضيات لم يقم الدليل على صحتها بل ان العكس هو أقرب للصواب، كما وان دارون وغيره لم يدعوا بأنهم استطاعوا تفسير ظاهرة الحياة أو الحياة الحيوانية أو النباتية في الخلية الحيوانية أو النباتية تفسيراً مادياً لأن الحياة لا تزال سراً أمام العلماء.

الحياة في نظر العلماء ظاهرة بالغة التعقيد فهي (تستخدم ذرات الأرض وتخلق عجائب جديدة طبقاً لقوانين الكون، ومن الأميبا صاعداً إلى السمك وغيره أو نازلاً إلى الجرثومة والميكروب، وكذا النباتات التي لا حصر لها وسواء في شكل خلية حية أم سمكة قرش أو ديناصور أو إنسان أو نبات فإن الحياة تهيمن على العناصر وترغمها على حل تركيباتها والاتحاد من جديد.. والحياة قد جعلت الإنسان وحده سيداً في ميادين الوجود والحياة تنتج الحياة، والحياة تحمي نفسها .. فالمادة ليست مبتكرة أما الحياة فإنها تأتي إلى الوجود بتصحيحات رائعة وبدون الحياة لا قيمة للمادة وليس للحياة وزن ولا حجم، والحياة هي المصدر الوحيد للوعي والشعور وهي وحدها التي تجعلنا ندرك صنع الله ويبهرنا جماله)[18].

---

[16] ينظر: الخولي، د. يمنى طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة : ص95 . 104 .

[17] ينظر: جي. أم، سفج / التطور فيه تفاصيل حول موضوع التطور وعلاقته بلامارك أو دارون .

[18] ينظر: د. كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ترجمة محمود صالح العنبكي : ص83 . 90 .



المبحث الثاني: المنهج القرآني في عرض الحقائق العلمية

المطلب الأول: اللغة والحقيقة.

تحدثنا في المبحث السابق عن نوع من الصراع أو الجدل بين الدين والعلم، وعلمنا أن العلم تأسس في بداية حركة النهضة على أسس مادية أو اتجاه أحادي يؤكد على ان المادة هي كل شيء (وان الصياغة المتكاملة لمذهب الواحدية المادية تستلزم بالضرورة التفسير المادي الميكانيكي للحياة ذاتها، وقد توافق العلماء على أن الفكر هو وظيفة من وظائف المخ، ونظر العالم الإنكليزي روبرت هوك إلى الذاكرة على انها مجرد خزانة مادية، وانتقلت المادية من انجلترا إلى أوربا لتصبح المذهب الرسمي للموسوعيين الفرنسيين اللذين أكدوا على ان الظواهر غير المادية كالفكر والانفعالات والروح إما أن تكون وظيفة ثانوية للمادة وإما انها خرافة، ثم تطرف الفكر المادي حتى ارجع الطبيب الفرنسي بيير كابانيس 1808 الظواهر النفسية إلى العوامل المادية للبيئة والمناخ والغذاء، وقال قولته الشهيرة: (المخ يفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء.. وهذه صورة متطرفة يصعب قبولها)[19].

وبعد هذا التيار ظهر تيار آخر يؤكد على أن المادة لا يمكن أن تؤدي هذه الوظائف المعقدة للحياة إضافة إلى ذلك إن تكوين الذرات المادية يقود إلى أسئلة تدفع باتجاه المجهول فإن التكوين الذري من الالكترون السالب إلى البروتون الموجب، ثم تعقيد العلاقة بين الذرات وتكوين الجزيئات والعناصر، ثم سريان الالكترونات المكون للتيار الكهربائي كل هذه العلاقات لا يمكن أن تأتي بصورة عشوائية فاقدة للقصدية والتوافق المؤدي إلى استمرار الحياة، ثم ان المشاعر الإنسانية والحرية تحديداً، كما يقول الفيلسوف كنت: (هي الوحيدة من بين جميع أفكار العقل التأملي التي نعرف قبلياً بإمكانيتها ولكن من دون أن ندركها.. وهنا يوجد الآن سبب ذاتي بحت للقبول، وبذلك تحظى فكرة الله والخلود بواسطة مفهوم الحرية بحقيقة موضوعية وبحق.. وهكذا يتم الربط بين العقل العملي الأخلاقي والعقل النظري التأملي)[20].

وتحدثنا كذلك بأن مبررات ظهور النزعة المادية كانت بسبب المفاهيم الخاطئة لمفهوم الدين ونصوصه تجاه قضايا الوجود، وكذلك لابد أن نقرر بأن الدين ليس مطالباً بتقديم تفسيرات دقيقة لكل الظواهر الكونية، بل ان الدين وظيفته الأساسية هداية البشر وتأسيس علاقات من

الحب والتسامح بين بني البشر، ويتولد هذا الشعور عن طريق الارتباط بالإيمان بالله تعالى.

---

[19] ينظر: الخولي، د. يمنى طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين، م. س : ص125 . 129 .

[20] ينظر: كنت، إيما نويل، نقد العقل العملي، ترجمة غانم هنا : ص44 .



بناء على ذلك نجد ان الصراع بين الدين والعلم تولد من مفاهيم وردود أفعال خاطئة لدى الطرفين، وكان على الباحثين عن الحقيقة أن يدركوا بأن الدين هو رسالة إلهية للإنسان لوضعه في مسار متوافق مع نواميس الوجود، وإن العلم هو محاولة الإنسان للتعرف على هذه النواميس، وبذلك يتحقق التوافق بين الدين والعلم وإذا تحقق هذا التوافق ستحظى الإنسانية بحالة من الازدهار والرقي والسلام وتحدث نقلة نوعية في حياة الإنسان على الأرض، وبذلك يحدثنا القرآن عن جانب من هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[21].ونحن نتداول هذه المفاهيم بين الدين والعلم ندرك بأن غاية الدين والعلم هي الوصول إلى الحقيقة والشعور بالطمأنينة نتيجة الحصول على المعرفة التي تؤدي إلى الحقيقة، ولكن بسبب الصراع المتوهم انشغل الطرفان بجوانب أدت إلى زيادة تعقيد الحياة وعزلة الإنسان، وتوتر حياته فلا المفهوم الديني نجح في إشباع حاجة الإنسان الروحية بسبب سوء فهم الدين ولا العلم نجح في تقديم المعرفة بصورة إيجابية تعزز من القيم بسبب انحراف العلم عن المقاصد الإنسانية، وكذلك الأخلاق التي دعى إليها الفلاسفة بسبب شعورهم بالحاجة الضرورية للأخلاق في حياة الإنسان أيضاً لم تثمر دعوتهم بإقناع الإنسانية بأهمية الاكسولوجيا في حياة الإنسان، بل تلاشت مثاليات الفلسفة المثالية والعقلانية وحتى المادية والوضعية، ووجد الإنسان نفسه في مواجهة عنيفة مع بني جنسه دوافعها الغرائز والحاجات البيولوجية والمادية، وعلى هذه الأسس تجذر الصراع في حياة البشر على المستويات كافة.

من هنا كان سؤال الحقيقة هو المطلب الأساس للدين والعلم والفلسفة، وكل هذه الاتجاهات كانت تستخدم اللغة للتعبير عن هذه الحقيقة وبناء على ذلك يظهر للوجود قضية اللغة التي ارتبطت بالإنسان ارتباط نوع كما يعرف الفلاسفة الإنسان بأنه كائن ناطق أو حيوان ناطق، وكان المفروض مع وجود اللغة في حياة الإنسان أن تتطور الحياة بشكل متسارع وتقل النزاعات وتتوثق العلاقات ولكن الملاحظ ان شيئاً من ذلك لم يحدث، بل الغالب ما يحدث العكس، وحتى عاد الإنسان يمارس العنف والظلم والأنانية أكثر من الحيوانات في بعض الأحيان كل ذلك يؤكد أن الحاجة إلى الإيمان والقيم والتربية تعد ضرورة لحياة الإنسان، واللغة في حد ذاتها كانت ظاهرة معقدة وخارجة عن السياق العام للتفسيرات المادية، وكما يذكر رسل (ان هناك نظرتان متعارضتان إلى اللغة، فقد نظر الفيلسوف ليبنتس إلى اللغة نظرة متطرفة أي بعدها حساباً تسوده الأفكار الواضحة المتميزة، ونظر فيكو إلى اللغات الطبيعية تبعا

[21] سورة الأعراف : الآية (96) .



للطريقة التي تمت بها بوصفها وسائل للتواصل.. وتبعاً لذلك فما يصدق على المجتمع يصدق على اللغة بوجه خاص، فاللغة تبدأ عندما يتعين على الناس خلال أوجه نشاطهم أن ينقلوا المعلومات بعضهم إلى بعض، وتتألف اللغة في صورتها البدائية من إيحاءات وأفعال رمزية، وعندما تصبح اللغة منطوقة تمر العلاقات بتطور متدرج من الارتباط المباشر والطبيعي بالأشياء البسيطة إلى أنماط مصطلح عليها، بل ان بداية اللغة لابد أن تكون شاعرية وهي لا تصبح عليه إلا بالتدرج)[22].

ومع التشوش الذي صاحب العلم حول أصل اللغة كان المفهوم الديني يحسم الموضوع باتجاه ميتافيزيقي، وإن الإنسان قد ألهم اللغة، وهناك رأي آخر يتوسط النظريتين بالاعتماد على المزج بين التعلم والإلهام ولهذا السبب يؤكد لينبتس أن الله وحده هو الذي يمتلك العلم الكامل، وكذلك يتابعه فيكو بأن الإنسان مخلوق فإنه يعرف العالم بطريقة ناقصة .. وبناء على ذلك جعل لغة العلم الرياضية هي المعبر عن الحقيقة؛ لأن الرياضيات صنعها البشر ولكن فيكو يعتقد أن الرياضيات لن تعبر عن الحقيقة لأنها منفصلة عن الطبيعة وهي بناء اعتباطي شيده الذهن البشري، أما الطبيعة فقد صنعها الله، وثم كان الله وحده هو الذي يفهمها)[23].

اللغة بالتالي إذن عاجزة عن التعبير عن الحقيقة، ولكن لا مناص من اعتمادها في نقل المعرفة ولذلك لجأ الفلاسفة إلى ظاهرة التأويل أو ما يسمى ـ الهيرومونيطقيا ـ التي اعتبرت مشروعاً لإنقاذ المعنى من الفقدان أو التحجر، ولكن مع هذا ظهرت الحاجة إلى لغة إنسانية تعطي الحقائق مع دفعة من الرضى والمعرفة، وهذه اللغة لابد أن تعبر عن طبيعة الوعي البشري وعلاقته الجدلية مع الوجود، ويذهب محمد عنبر (إلى أن هذه اللغة الإنسانية تكون الوعاء الذي يستوعب هذه الحركة.. وإن هذه اللغة تمثل الثوب بالنسبة للمعاني الثاوية فيها، ويقرر محمد عنبر أن الوجود واللغة مرتبطان في التعبير عن الشيء وضده فالوجود قائم على ثنائية، كذلك اللغة والقضية الأولى في الوجود هي علاقة الحرية والمعرفة فهما شيئان في واحد، والوجود هو كم وكيف والحركة الأساسية هي في تحويل الكم إلى كيف، فهناك علاقة أيضاً بين الكم والكيف، الماضي كم والمستقبل كم والحاضر كيف، وهي لحظة مباشرة الفعل وتحويله إلى كيف، وفي فلسفة العلم الحديث يحدث العكس فهو أي العلم ينزع إلى تحويل الكيف إلى كم وبذلك يحاول تحويل الحياة إلى جماد في تحويل العلوم الحياتية إلى كموم فيزيائية مادية بحتة!

---

[22] رسل، برتراند، حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت / 1983 : ص95 .

[23] المصدر نفسه : ص101 .



وبناء على هذه النظرة وبالمقارنة مع قصة حي بين يقظان وقصة روبنسون كروزو فإن نمط تفكير الحضارة الغربية نمط ذو نزع كمي متمحور حول الأشياء، واستناداً إلى المقارنة الذكية التي أنجزها مالك بن بني في كتابه مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي بين القصتين التي هي عبارة بين نموذجين روائيين يمثلان مدخلاً نمطياً للرؤيتين الغربية والشرقية.. حيث أن كروزو لم يشغل نفسه في عزلته إلا بصناعة طاولة خشب والأكل والنوم أي الاهتمام بعالم المادة في حين ان حي بن يقظان يشغله هاجس البحث عن الحقيقة)[24].

إن عالمنا محكوم بنظام الزوجية للدلالة على الحاجة والعجز فلا وحدانية إلا للخالق، ولذلك **قال تعالى:** ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[25].

من هنا جاءت هذه النظرية اللغوية لتؤكد ان دلالة اللغة تتضمن الشيء وضده، فالمادة هي نقيض الفكر في الوجود فلا المادة تفكر ولا الفكر مادة، لكن هناك ترابط ضروري بينهما وما يبرره علماء الطبيعة عن وجود فكرة التلازم في مثال الساعتين عندما تنظر إلى إحداها نجد ان الساعتين تدلان على وقت واحد فهو مغالطة لا تعبر عن حقيقة الترابط بين اللوازم في الوجود إذ لا تأثير ولا ترابط بين الساعتين في الوجود إلا في ذهن الملاحظ في حين ان التلازم في الوجود بين الظواهر هو حقيقي.

فالتلازم بين الحياة والماء حقيقي وضروري فلا حياة بلا ماء، وكذلك التلازم بين الهواء أو الأوكسجين مع حياة الإنسان ضروري فعند انعدام الأوكسجين تتوقف الحياة، وكذلك التلازم بين الشمس والحياة وطبقاً لقانون التلازم تستمر الحياة وإن حدوث أي خلل سيؤدي إلى تعطيلها، وهذا التلازم هو المناسبة المقصودة التي صممها خالق حكيم عليم، وكذلك اللغة هي في حقيقتها ملازمة للإنسان ولربط حياته بالحكمة والإنسانية، ولذلك كانت قصة بداية الخليقة مرتبطة باللغة عند الإنسان الأول في قوله تعالى:﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[26]، ولكن هذه اللغة تخضع لجانبين جانب خلقي وهو ان الإنسان قد تم تزويده بجهاز نطق متطور يساعده على انتاج أصوات معبرة عن دلالة لغوية مرتبطة بالعقل والإدراك، وجانب آخر هو جانب قبلي غيبي مسبق ولا يمكن فهم اللغة بموجب الرؤية التطورية

[24] ينظر : الخديم، المرابط محمد، دين الفطرة : ص26 ـ 40 .

[25] سورة الذاريات : الآية (49) .

[26] سورة البقرة : الآية (31) .



الأحادية لأنها لا يمكن أن تمدنا بتفسيرات لتعقيدات الظاهرة وارتباطها بوجود الإنسان ووظيفته، ومن ثم تطور قابلياته الفكرية من الشعر والفن والفلسفة في مدة قصيرة بحسب علم الأنتروبولوجي وتاريخ العلم ، فاللغة أساساً أي لغة هي ظاهرة فريدة وغريبة فهي تعبر عن صور في الذهن مرتبطة بالواقع، وكما فسر العلماء ظاهرة ارتباط الذهن أو الفكر بالواقع، وحدث الخلاف بينهم حول أيهما أسبق الفكر أم المادة وكما هو معروف فإن الجدل بين المثاليين والطبيعين لم يحسم القضية بشكل واضح، ولكن كما ذكرنا بأن الإدراك لا يمكن أن يتحقق بدون معلومات مسبقة لتقارن بالواقع، وعلى هذا الأساس كانت اللغة تجمع بين الإلهام والتعلم الكسبي أي ان الوعي البشري مزود بخبرة لتطوير الفكر عن طريق اللغة ولو ان الإنسان لم يلهم الخبرة المسبقة لما استطاع أن ينتج علامات لغوية متطورة من الشعر والحكمة والفكر العميق، وكانت اللغة في حياة الإنسان تعبر عن حقيقة وجوده فهي تعبر عن الفطرة أو المعلومات المركوزة في ذهن الإنسان ليوظفها في عالمه للوصول إلى إدراك الحقيقة وكلما كانت اللغة واضحة وبينة ومرنة كانت معبرة عن دلالتها بشكل مباشر، وكذلك كلما كانت اللغة مرنة في سعة دلالتها فإنها ستنمو وتتطور وتستمر، ومن هنا كانت اللغة ترتبط بالفكر في حقيقة العجز والتصور النسبي بسبب حدوثه، أي حدوث العقل وإن العقل المخلوق كما يقول فيكو عاجز عن إدراك الطبيعة، فكانت اللغة كلما تقترب في الحقيقة فإنها تنجح في التعبير عن الواقع وهذه الحقيقة النسبية المرتبطة بالعقل القاصر تكون في أفضل الأحوال في ترابط العقل مع اللغة العربية التي نجحت في الحفاظ على المعاني بشكل دقيق ومنحت الإنسان قدرة على التعبير عن أعقد العلاقات والموجودات وحيويتها النامية وأصوات ألفاظها المتناسقة مع انسيابية متناغمة مع الحركة وتصوير المعنى عبر الأصوات، والعربية تجاوزت اشكالية حدود الاستيعاب القاصر للأفكار وتميزت بفتح الفضاء المعرفي أمام الفكر ولم تغلقه أمام حركة العقل وتطور العلوم والمعارف، فكانت هذه اللغة بحق تعبر عن معاني متجددة في كلام الخالق العظيم في القرآن الكريم فهي تخاطب الإنسان في عمقه الباطن وجوانيته القارة في عمقه الروحي والنفسي، فعندما تسمع قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[27]، ولا يمكن أن نجد معنى مكافئ للمعنى المتولد في هذا النص في أي لغة أخرى وهي لغة توصل المعنى لكل المستويات النفسية والثقافية، فيعلمها الأمي والعالم والطبيب والمهندس كل يأخذ المعنى الذي يفهمه ويدركه ويتأثر به من نص واحد، ولكل دلالة تنسجم مع ثقافته أما لغة العلوم الطبيعية فهي تخاطب مستوى معين من الناس المتخصصين

---

(27) سورة النحل : الآية (6) .



فليس كل الناس يستطيعون فهم لغة العلم الطبيعي، وكذلك لغة هذه العلوم عادة ما تكون جافة وليست فعالة في التأثير النفسي أو التربوي، وفي الغالب تحتاج إلى لمسة تنويرية وصياغة تحقق مقاصد بعيدة المدى في التأثير على النفس، ولذلك تكون النتيجة لقراءة اللغة العلمية تراكم معرفي غير قادر على الربط والوصول إلى معرفة تولد استقراراً نفسياً، ولأن العلوم المعاصرة أهملت اللغة العربية وهجرتها جعل التطور العلمي يولد تناقضات واختلافات في الفهم تؤدي إلى اختلافات في المواقف ومن ثم الانحياز إلى معيارية حادة غير مرنة الأمر الذي يعقد المشهد الإنساني ويكرس الانقطاع الحضاري والإنساني ويقلل فرص التواصل والتوافق السايكولوجي بين بني البشر.. وفي العربية نظام لغوي فكري معقد ولمعرفة الثروة الفكرية في اللغة العربية نحتاج إلى النظر العميق في دلالة المفردة في هذه اللغة ولكن الدراسات المعجمية لم تعط هذه اللغة حقها لأن جمع اللغة اعتمد على التصنيف الصناعي أو وضعت الدلالات بعد وضع القواعد والأقسام في اللغة (فجمع الخليل بن أحمد الفراهيدي عن طريق الإمكان الذهني لا من المعطى اللغوي، ففسح المجال لصنع اللغة بدل جمعها .. والحال هذه أن ينتهي الأمر إلى تحكيم القياس بدل السماع.. وهذا ينتج عنه تكريس النظرة التي تنطلق من اللفظ إلى المعنى، والأسماء المشتقة لا تخضع في عملية اشتقاقها للسماع، بل لقد تم وضع أوزان لها هي في الواقع قوالب منطقية)[28]، وعلى هذا الأساس حدثت التباسات كثيرة في تحليل النص أدت إلى أوهام في الاستدلال والتعرف على المعنى، ومن هذه المشكلات ما ذهب إليه محمد شحرور في كتابه القرآن قراءة معاصرة الذي اعتمد فيه على المنهج اللغوي وهو المنهج الذي اعتمده المعتزلة في تحديد معاني الألفاظ، ولذلك اعتمد على معاني ألفاظ مثل الإيمان والصلاة والكفر وغيرها، وهي ألفاظ منقولة نقلها الشرع من دلالتها اللغوية المباشرة إلى دلالة جديدة مرتبطة بتعاليم الدين الجديد (وبمقارنة بسيطة بين المنهج الأصيل ومنهج تحليل اللفظ والاستدلال على معناه اللغوي الذي اعتمده المعتزلة نجد أن الفرق شاسع بينهما فنهج المعتزلة يتعامل مع الكلمة فقط والمنهج الآخر يتعامل معها لغة واصطلاحاً)[29].

والحقيقة أن الكلمة صوت نجسد فيه أفكارنا فأجساد أفكارنا هي الكلمات، ولذلك تخضع اللغة لضوابط وقوانين كما تخضع الاجساد إلى قوانين ففي كل كلمة هناك دلالة على فكرة وفكرة مضادة وهذه هي نظرية محمد عنبر التي شرحها لخديم في كتابه الذي أشرنا إليه، وبناء على هذا القانون نستطيع أن نأخذ اللغة بهذا الاعتبار لا على أساس ستاتيكي مستقر وإنما ترتبط بحركة الفكر تتأثر وتؤثر فيها في ترابط بين الكم والكيف، ففي بحثنا في الكلمة فإننا

---

[28] د. محمد عابد الجابري، التراث والحداثة : ص146 .

[29] ينظر: الخديم، المرابط ولد محمد، دين الفطرة، م. س : ص54 . 55 .



نبحث عن فضاء معرفي متحرك فلا يوجد توقف عن الحركة مادام هناك تفاعل بين العقل والنص وبالإمكان إدراك هذه الدلالة من قوله (ﷺ):" من استوى يوماه فهو مغبون" الحديث ضعيف لكن معناه صحيح في إشارة إلى إضافة إيجابية إلى الحياة، كذلك التعامل مع النص إذا لم يتحرك الفكر فإن النتائج ستكون سلبية (والإنسان بفطرته لا يقنع من الحياة بمظاهر أشكالها وألوانها كما تنقلها إليه حواسه بل يتناولها بعقله وينفذ إليها ببصيرته ليعرف حقيقة كل شيء!! من أين جاء؟ وكيف جاء؟ وإلى ما ينتهي؟.. وتقوم أي ديانة أو عقيدة على أسس معينة توضح حقيقتها مثل التوراة والإنجيل أو حتى مؤلفات ماركس وانجلز ولينين ولابد أن تكون هذه الأسس قادرة على تحمل البناء المقام عليها وفي الإسلام كان القرآن والسنة هما مصدرا هذه الأسس)[30]، ويتم بيان هذه الأسس عن طريق دور رجال الدين أو العلماء أو القساوسة، أي ان النص الديني أو المتن لابد أن يخضع لضوابط بيانية تتفق عليها مؤسسة متخصصة في مجال موضوع النص.

المطلب الثاني: المنهج القرآني في بيان الحقائق.

تحدثنا عن خصائص اللغة القرآنية وان الحقيقة بالنسبة للعقل البشري لا سبيل إلى الإحاطة بها إحاطة مطلقة، ولذلك فان المعاني الكامنة في النصوص تتطور بتطور الثقافة والمعرفة لكن لا تتناقض ولا تحتاج إلى تعديل، ومن خصائص التوظيف القرآني للغة نجد أن النص يعطي المعنى المتحرك لغرض رسم ملامح الصورة المراد إيصالها بدقة ونسبية مواكبة لثقافة العصر، وكذلك يمنح المتلقي طاقة للنظر والتأمل فيحدث تفاعل إيجابي لتحويل الكم الفاقد للحركة، ويعبر عن الماضي الذي انطوى والمستقبل الذي لم يأت بعد إلى كيف معاش ينبض بالحياة والحركة، كما في قوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[31] وكما قررنا فإن المفاهيم المراد إيصالها وترسيخها كمعاني مستقرة أو عقائد في ذهن المتلقي تتم عبر اللغة سواء كانت في الكتب المقدسة أم في شرحها أو تأويلها عن طريق المؤسسة الدينية أو الفكرية المرتبطة بنظرية كالماركسية.

---

(30) ينظر: المصدر نفسه : ص55 . 61 .

(31) سورة الحج : من الآية (5) .



ولما طبق الغربيون مناهجهم النقدية للعهد الجديد عن طريق إتهام موثوقية النصوص كانت النتائج السلبية شجعت على عدم الاعتقاد في المسيحية لكن دراسات المستشرقين النقدية العلمية الدقيقة للنص القرآني أدت إلى الإقرار الكامل بموثوقية النص وإحكامه التام وانسجامه المذهل مع الثابت من نتائج أبحاث العلوم الطبيعية والكونية)[32].

وعلى هذا كانت اللغة هي الأداة الفعالة لنقل الخبرة والأفكار والتواصل، وقد خلق الإنسان ولديه قدرة على انتاج أصوات تعبر عن فكر وهي اللغة، فاللغة عندما تعبر عن الفكر فإنها تعبر عن خبرة وتدريب يكون الإنسان مهيأ للربط بين معلومات الحواس والبيئة ومعلومات سابقة مثلت الأساس في تدريب الإنسان على الربط مع الدماغ وهو الجهاز البيولوجي المعقد، وكل هذه العوامل تتجمع لتطور قدرات الإنسان وخبرته تجاه الوجود، وعلى هذا الأساس نستطيع القول ان الإنسان الأول كان مهيأ بيولوجياً لإنتاج اللغة ومزود بخبرة سابقة على الربط لتطوير خبراته وهي أساس لإنطلاق مسيرة الإنسان على الأرض لممارسة الاستخلاف وهو المشروع الإلهي للإنسان قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[33]، وهذا الاستخلاف يتحقق بالترابط والمناسبة بين التسخير الذي جعله الله قانوناً يسري على المحيط البيئي للإنسان سواء في الأرض أم المجموعة الشمسية، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[34]، فيرتبط مشروع الاستخلاف مع التسخير مع العقل والملكة المعبرة عن الفطرة لتعزيز تمكين الإنسان على مقدرات الأرض، وعلى هذا الأساس نفهم قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[35]، فعلمَّ تشير إلى معلومات الفطرة القبلية وإن الإنسان قد اصطفى لعملية الربط والاستنتاج أو

---

[32] دين الفطرة ، م. س، يأخذ عن الإسلام كبديل للدكتور مراد هوفمان سفير ألمانيا بالرباط : ص63 .

[33] سورة البقرة : الآية (30) .

[34] سورة إبراهيم : الآيتان (32 . 33) .

[35] سورة البقرة : الآية (31) .



الاستدلال والملائكة لم تكن بموجب استعداداتها التي خلقت عليها قادرة على هذا الربط، وتوظيف العقل والاستنباط كما كان الإنسان ولأجل ذلك كرمه الله وجعله سيد الموقف في الوجود يتصرف بموجب هذه الخبرة للسيطرة على الطبيعة والبيئة التي كانت متوافقة في الخلقة ومناسبة لتفجير طاقات هذا المخلوق العقلية والذهنية، فكانت عملية تعليم الأسماء تدل على أن الإنسان تمكن من الاستدلال على إعطاء الأسماء للأشياء المحيطة به، ولذلك أول ما يتعلم الطفل في اللغة هو عملية إطلاق الأسماء أو أصوات تدل على أسماء مثل تحذير أو ترغيب أو إطعام كل هذه العمليات تعطى لها أسماء، ثم بعد التدريب يتعلم الربط وتكوين الجمل البسيطة ثم يصل إلى مرحلة التكامل الفكري واللغوي، ومن الربط بين الكلام والفكر نستطيع تحديد طريقة التأثير اللغوي في نقل الفكر والخبرة، وكما يصورها لخديم:

1. إن الكلام صفة لنفسية المتكلم وعن طريق الكلام تتجلى مظاهر نفسية المتكلم.
2. الطريقة العلمية وهي طريقة الملاحظة والتجربة والاستنتاج، وهي الطريقة التي اتبعها علماء العلوم الطبيعية الحديثة مع انها تأخذ بنتائج التجربة إلا ان العقل أخذها من الربط بين عدة أفكار ومعلومات سابقة مثل معرفة أن المادة تفنى وإن الذرة تنقسم فإن العقل لم يأخذها مباشرة من التجربة وإنما بمساعدة الاستنتاج مع التجربة، فالطريقة العلمية تستنبط التصور أو الفكر، ولكنها لا تستطيع إنشاء الفكر وهذا السبب هو الذي دفع الكثير من العلماء للوقوع في خطأ وتابعهم البعض من علماء العا لم الإسلامي الذين اشترطوا لقيام أي نهضة علمية أن تفهم الدين بشكل يتفق مع الفكر العلمي المقبول بحسب ادعائهم، وهذا الأمر يعني بالضرورة تخليص الفكر الديني من كل حقيقة غيبية غير داخلة في قوالب العلم الحديث، وعلى هذا فإن الطريقة العلمية مع اعتبار منهجها التجريبي لكنها تبقى تفتقر إلى عمل ذهني أو عقلي يعزز النتائج المبينة على الملاحظة ويضعها في الإطار المفيد والعلمي الحقيقي، وعليه لا يمكن أن تكون الطريقة العلمية أساساً للتفكير بل تصلح أن تكون فرعاً من أصل.
3. الطريقة العقلية هي الملاحظة والاستنتاج وهي الوحيدة التي تصلح أن تكون أساساً للتفكير، فالعقل يشمل الإحساس والواقع والمعلومات السابقة والدماغ.. إلا أن العقل لا يمكن أن يستقل بالمعرفة إلا بالوعي الباطني وهو القلب الذي يحول مدركات العقل إلى عواطف وأحاسيس تشيع في النفس روعة وجلالاً، أي أن الإنسان هو عقل وعاطفة وهذا ما يسمى بالفطرة، والقيادة لابد أن تعطى للعقل



وليس للعاطفة؛ لأن العاطفة وحدها تجعل الإنسان يتحرك بلا ضابط فلابد من استخدام العاطفة والعقل حتى تكون الفطرة سليمة)[36].

وهذا المسار لحركة الإنسان تحتاج إلى لغة تناغم الفطرة وتمنح المعرفة بانسيابية تواكب إمكانات العقل البشري للتعرف على الحقائق بنسبية مرنة وديناميكية مؤثرة للوصول إلى الحقائق بأقل مقاومة، وكما يعرف في دوائر الإرسال والاستقبال بدائرة الرنين (Resonace Frequinly) ، ولذلك سنوجز خصائص اللغة القرآنية وترابطها في مراعاة العقل البشري والواقع لإيصال المعارف بأكثر الطرق كفاءة والحصول على نتائج تحقق مقاصد سياق النص:

أولاً: إن النص القرآني لا يشخص ولا يعطي ملامح مشخصة، بل ان النص يعوّم اللفظة في فضاء المطلق ويسلبها التحديد، والمقصد من ذلك هو إبقاء النص يتحرك في الواقع بالنسبة للعقل الإنساني وغير مرتبط بزمان أو مكان لتلبس الزمان والمكان بقصور الحدوث الذي لا يناسب النص المطلق، ولذلك نجد أن النص القرآني يبتعد عن التشخيص أو التحديد الزماني، وعلى هذا فإن أسماء مثل فرعون أو هامان أو آزر المذكورة في قصة سيدنا إبراهيم كلها أسماء غير مشخصة تشخيصاً دقيقاً، وإنما تقبل التأويل على ان الصفات هي المقصورة وليس الأشخاص، وعليه فإن فرعون موسى لم يكن أسمه فرعون، وإنما ملوك مصر يسمون فراعنة كما أن ملوك الفرس يسمون أكاسرة، وكذلك القياصرة بالنسبة للروم.

ولذلك حتى أبو لهب لم يذكر أسمه المعروف وإنما بصفته التي ثبتها القرآن الكريم، والتي تعبر عن موقف منبوذ استحق عليه الوعيد، وعلى هذا فلم يذكر اسم في القرآن ما عدا الأنبياء لأن أسمائهم ارتبطت بالوحي والرسالات فاندمجت شخصياتهم بالدلالة المطلقة للنص، وفي الدعاء الوارد عن الرسول(ﷺ) فيه أشهد أن محمداً حق وهو جزء من حديث في صحيح مسلم باب التهجد.

المقصود من الكلام أن النص القرآني هو كلام الله والكلام صفة المتكلم فهو يعبر عن الحقائق المطلقة واختيار العربية للتعبير عن كلام الله تعالى هو جزء من الإعجاز بالنظم والبلاغة التي تعني مطابقة الخبر للواقع، فالقرآن الكريم معجزة كله وهو السر الذي أودعه الله في هذه الألفاظ، والذي لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، ولذلك كانت اللفظة في اللغة العربية بالإمكان تحميلها دلالات ومعاني متجددة ومتحركة (وإذا تأملنا فيما يملكه الإنسان من الطاقة التعبيرية عن الأفكار والمعاني نجد الثغرات التي تمنعه من القدرة على التعبير عن كل ما يريد بالشكل الذي

---

[36] ينظر: الخديم، المرابط ولد محمد، دين الفطرة : ص68. 76 .



يريد ولن يستطيع أن يحقق التوافق بين اللفظ المستخدم على المعنى المقصود بالشكل الدقيق لأسباب منها أن المعاني أغزر من الألفاظ، وهذه المعاني تنبع من الداخل، أما الألفاظ والتعابير فتأتي من الخارج وهي محدودة ومتناهية، وعلى هذا لا سبيل إلى حصر المعنى باللفظ؛ لأن الألفاظ لا تغطي إلا جزءً يسيراً من المعاني ألا ترى أن لفظة (ألم) تستعمل للدلالة على أنواع شتى من المشاعر والأحاسيس مثل أشعر بألم في رأسي، بألم المنظر بألم من كلمة ...إلخ، وكذلك الجمال تستعمله للتعبير عن معاني عدة مثل منظر جميل قصة جميلة شخص جميل كتابة جميلة، وهكذا الكلمة الواحدة تعبر عن معاني عدة)[37].

وإذا عدنا إلى موضوع التشخيص نجد الكثير من أمثلة تعويم المفاهيم في النص المطلق فلم تعد تعبر عن الحدوث الزماني والمكاني فنجد أن مكان الطوفان الذي حدث في عصر سيدنا نوح (عليه السلام) قد اختلف في مكانه وزمانه، فالمقاصد القرآنية تسوق الحدث للعبرة ولتعم الفائدة وليس لتقديس أشخاص أو أمكنة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ﴾[38]، جاءت مصر بصيغة التنكير لتعويم الدلالة وعدم حصرها في مكان واحد، وكذلك ذكر بابل في سورة البقرة لم يأت بصيغة التشخيص أو التقديس أو المدح أو الذم، إنما لبيان الدلالة على ظاهرة وصفه مذمومة كانت شائعة هناك وهي السحر، وكذلك أسماء أهل الكهف وزمانهم ومكانهم فلم يأت في القرآن التشخيص للمدح أو التقديس لا للصحابة ولا لأهل البيت (عليهم السلام) أو أي شخصية أخرى لم يأت سواء في المدح أم الذم، وعندما ذكر(زيد) وهو اسم صحابي جاء ذكره ليس في معرض المدح أو الذم، وإنما لتقرير حكم شرعي يحتاج إلى ذكر الاسم للتحديد وتقرير هذا الحكم.

ثانياً: عندما يختار النص لفظة محددة للتعبير عن حقيقة معينة أو حركة فعلية فإن هذا الاختيار يعبر عن قدرة مطلقة وحكمة معجزة وحقيقة مطلقة يفهمها المتلقي بحسب المستوى الثقافي والبيئي الذي يعيشه مثل اختيار النص للفظة تجري وربطها بالشمس في قوله تعالى: ﴿ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[39]، فتجري يفهمها الإنسان البسيط بأنها تجري إلى نهاية مقدرة لها، والفلكي يدرك أن الشمس تتحرك بمدارات ضمن مجموعة تتحرك كلها، وكذلك يفهمها الأمي الذي يراقب شروق وغروب الشمس، المهم أن القرآن الكريم قبل أكثر من

---

(37) ينظر: الخديم، المرابط ولد محمد، دين الفطرة: ص76 وما بعدها .

(38) سورة البقرة: من الآية (61) .

(39) سورة يس: الآية (38) .



1400عام تحدث بصراحة واضحة وأخبر بجريان الشمس وهي حقيقة أثبتها العلم في العصر الحديث، ولم يذكر النص القرآني أن الأرض تتحرك أو تجري ولكن ذكر أن القمر قدره منازل ثم أعقبها قوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[40]، فألفاظ فلك ويسبحون تدل على قابلية مطلقة لدلالة النص على معاني متجددة بحسب التطور العلمي، وكذلك عندما ذكر حقيقة عن الأرض ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾[41]، فالمد كما يذكر الشيخ الشعراوي في إحدى محاضراته يقتضي التكوير؛ لأن المد حقيقة نسبية أما التكوير فهي حقيقة تكوينية ولذلك قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾[42]، فالدحو الذي يرتبط ببيض النعام كما في المعاجم يرتبط بتكوين الأرض وتكويرها أما المد فهو يرتبط بالإنسان الذي يسير على الأرض، فحيثما ذهب سيجد الأرض ممدودة، ولو كانت مسطحة لانتهى التكوير عند نهاية النقطة الأخيرة على الأرض، فالمد يقتضي التكوير، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[43] فإن الأوتاد يفهمها البدوي كالخيمة وعلاقتها بالوتد، فالوتد يساعد على الاستقرار كما ان الجبال تساعد على استقرار الأرض ﴿ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[44].. كذلك يفهم الجيولوجي النص فهماً يعبر عن حقيقة جيولوجية وهي ان الجبال الجزء الذي يشكل فيها الجذر أعمق من ارتفاع الجبل.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[45]، هذه الآية فيها دلالات معجزة وعظيمة لكن المفسرون القدماء فهموا فتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالزرع فلم يتوصل العلم في عصرهم إلى نظرية الانفجار الكوني، والماء هو سبب الحياة ولم يكونوا يعلمون بأن أكثر من 80% من مكونات الخلية الحية النباتية والحيوانية يشكله الماء، وكذلك جاءت نظرية الانفجار الكوني لتؤكد سبق القرآن وإعجازه بأخبار لم تكن معرفتها متاحة لعصر التنزيل، وكذلك في علوم الأجنة والفلك

---

[40] سورة يس : من الآية (40) .

[41] سورة ق : من الآية (7) .

[42] سورة النازعات : الآية (30) .

[43] سورة النبأ : الآية (7) .

[44] سورة الأنبياء : من الآية (31) .

[45] سورة الأنبياء : من الآية (30) .



والبحار والغيوم وقوانين الحياة والنفس والنبات والجمادات كل ذلك جاء في القرآن الكريم في صيغ قابلة لفهم متجدد بحسب التطور العلمي لعصر التأويل للنص الثابت المنزل قبل أكثر من أربعة عشر قرناً.

المطلب الثالث: الإعجاز القرآني.

إن الإعجاز القرآني شيء مذهل وهو بالنسبة للبحث يعد مقصداً أساسياً، فالقرآن الكريم كتاب نزل قبل أربعة عشر قرناً، وتحدى هذا الكتاب معاصريه بأن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه فعجزوا واختاروا أسلوباً آخر في التحدي وهو الحروب وهو الطريق الأصعب ولكنهم كانوا مضطرين لعجزهم أمام القرآن ومن أول آيتين من أول سورة بعد الفاتحة وهي سورة البقرة يتحدث القرآن عن التحدي، وكما يذكر النورسي أن الافتتاح بالحروف المقطعة هو بداية التحدي (وإن القرآن بفواتحه ومقاطعه بقي وبعد كما كان قبل، لم يماثل أحداً ولم يقلد.. واعلم أن (ألم) كقرع العصى يوقظ السامع وأن المطلوب هو شيء واحد أن تنظموا مثله ولو مفتريات، ويشير كذلك إلى أن هذه كلام الله الأزلي نزل به جبريل (عليه السلام) على محمد(ﷺ)، ومن دلالاتها أن الحروف المقطعة كالشفرة الإلهية أبرقها إلى رسوله الذي عنده مفاتحها)[46].

فهذه الحروف تدل على ان هذا القرآن مكون من ألفاظ كلمات وحروف ولكن الخالق العظيم عندما اختارها لكلامه وللتعبير عن مراده فكأنما نفخ فيها من روحه فتحولت إلى وضع آخر اختلفت فيه عن سياقها اللغوي الاعتيادي لتتحول إلى معجزة مؤلفة من كلام يستخدمه الإنسان في لغته تماماً كما خلق الله الإنسان من مكونات مادية ثم نفخ فيه من روحه فتحول الإنسان إلى خلق آخر فتبارك الله أحسن الخالقين وعلى هذا المفهوم حدث الخلاف بين علماء الكلام حول حقيقة كلام الله تعالى في القرآن الكريم، فذهب بعضهم إلى انه قديم لأنه صفة القديم وذهب آخرون إلى انه حادث لأنه متشكل من ألفاظ ننطقها، ونطقها المؤكد فيه الحدوث، وذهب آخرون إلى أن كلام الله قديم في نفسه ثم أحدثه الله في الألفاظ المتلوة من القرآن الكريم، وكل هؤلاء كانوا يريدون تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ونحن لا نريد أن نتوقف في هذه المسألة لأنها لم تعد تشغل مساحة من الثقافة المعاصرة المهم ان الإعجاز في القرآن الكريم يتضمن نوعين وهما:

1-إعجاز الأسلوب والنظم وهو الإعجاز البلاغي والمعروف (إن أسرار البلاغة ترد إلى أسرار الوضع اللغوي التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة

---

(46) ينظر: بديع الزمان النورسي، إشارات الإعجاز في فطان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي : ص51 وما بعدها .



التأليف وأحكام الوضع وجمال التصوير وشدة الملائمة)[47]ـ الرافعي ـ إعجاز القرآن ـ 2008م، ويدخل في هذا الإعجاز إعجاز المعنى الكامن في اللفظ وهو جوهر الإعجاز.

2-إعجاز المعنى والإخبار عن أمور لا طاقة لإنسان عصر التنزيل بمعرفتها ومنها الإخبار عن الماضي السحيق بتفاصيل دقيقة مثاله إخباره عن قصة أصحاب الكهف ـ وإخباره عن قصص الأنبياء وما جرى لهم وإخباره عن طوفان نوح (عليه السلام)، وكذلك إخباره عن المستقبل مثل إخباره عن انتصار الروم بعد هزيمتهم أمام الفرس، وتحديد مدة تحقيق النبوءة ببضع سنين (3 ـ 9) سنوات وقد تحقق، ويدخل في هذا النوع الآيات الدالة على الإعجاز العلمي والحقائق العلمية.

الخاتمـــــــــــة:

الموضوع أعمق من ان تغطية وريقات، لكن وجد الباحث انه يستحق المحاولة والنظر للتعرف على عجز الإنسان في طاقته الفكرية وامكاناته البيولوجية، وكان القرآن الكريم هو خارطة طريق النجاة وخطاب الإعجاز المستمر.

وتوضح لنا ان الإعجاز القرآني موضوع عميق ومتجدد وان توظيف القرآن الكريم للغة العربية بعد معجزة بذاتها فضلاً عن استيعاب النص لمعاني تعبر عن إعجاز علمي لم يكن يخطر على بال إنسان عصر التنزيل.

وفي الإعجاز العلمي كتب كثيرة بينتُ مواضيع الإعجاز العلمي التي تطرق إليها القرآن ولا مجال يسع التوسع في هذا الموضوع، لكن القضية الأساس التي حدث حولها خلاف هي ان القرآن الكريم كتاب هداية ولا دخل له في مجال العلوم الحديثة، وإن هذا الموضوع إقحام للقرآن في مواضيع لا علاقة له بها وتعبر هذه الحالة عن ضعف أمام التطور العلمي الذي تحقق على أيدي الغرب ولكن الحقيقة ان القرآن كما ذكر هو في الأساس كتاب هداية، ولكن هذا لا يمنع أن يذكر حقائق علمية بطريقة معجزة وهي طريقة تعبر عن قدرة النص القرآني على استيعاب الحقائق العلمية المطلقة؛ لأن الله تعالى الذي أنزل القرآن هو الذي خلق الوجود كله فعندما يخبر عن حقيقة علمية يستطيع الإنسان على قدر علمه أن يأخذ منها ما يعزز إيمانه عن طريق اكتشاف هذه الحقائق وذكرها في كتاب نزل قبل ألف وأربعمائة سنة يتحقق الإعجاز: نعم ان القرآن الكريم لا يعنى بالتفاصيل العلمية الدقيقة ولكنه يذكر جوهر الحقيقة، وكما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، فهو نص يفتح النظر والتأمل في الحياة ونشأتها ولكن لا يدخل في التفاصيل العلمية، وكذلك يؤكد بتعميمه الحقيقة المتفق عليها ان الماء هو سبب الحياة

---

(47)مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ص140 .



وبدونه لا وجود للحياة ولذلك نجد علماء الفضاء يبحثون في الكواكب عن الماء فإذا وجدوا ماءً بحثوا عن الحياة، وعندما لم يجدوا ماء أيقنوا بأن لا حياة على ذلك الكوكب.

ويحاول الكثير التشكيك في الإعجاز العلمي ولكن الواقع يشهد ان هذا المجال بدأ يترسخ في الثقافة الإسلامية وتوظيف هذا الموضوع في الدعوة إلى الدين أصبح حقيقة واقعة، وقد أسلم الكثير من الغربيين بسبب هذا الموضوع، وإن موضوع الإعجاز بدأ يشكل جانباً مهماً من ثقافة العصر الإسلامي.

وبناء على ما ذكرنا بالإمكان الاتفاق على أهم النتائج:

1. الاهتمام باللغة العربية؛ لأنها لغة حية وتحافظ على هوية الأمة الإسلامية وتساعد على وحدتها، وكذلك تملك اللغة العربية خصائص تفتقدها اللغات الأخرى مثل القدرة على التعبير بصيغ حية مثل الترادف والنقل، وكذلك التقديم والتأخير والاعراب وغيرها من خصائص حية في اللغة العربية، لعل أهمها قدرة العربية على محاكاة النفس والمشاعر والتأثير النفسي في المتلقي عن طريق الصوت والتلاوة ومن ثم التدبر.
2. الاهتمام بالإعجاز العلمي والدعوة إلى البحث في القرآن الكريم من قبل متخصص في العلوم الحديثة للربط بين الحقائق المذكورة في القرآن الكريم والتطور العلمي وتوظيف ذلك في مجال الإيمان وتعزيز القيم في المجتمع، وينبغي الحذر من تحول هذا الموضوع إلى السلبية.
3. العمل على تحقيق توافق بين العلم والدين والتأكيد على ان العلم الحق يتفق مع الدين الحق وفي الافتراق يتسبب الشقاء للإنسانية.

قائمة المصادر والمراجع

1. أمانويل كنت، نقد العقل العلمي، ترجمة غانم هنا، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت، ط1، 2008م.
2. بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، ترجمة وتحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار الأنبار ـ بغداد، ط1 1989م.
3. تشارلز ف. هانل المفتاح الكوني، ترجمة أيمن الحوراني، الدار العربية للعلوم ناشرون ـ بيروت، ط1، 2012م.
4. د. جي. أم. سفج، التطور، ترجمة د. ساهي جواد ضاحي ـ بغداد، د. ت.



5. العمر، د. عبد الله، ظاهرة العلم الحديث، دراسة تحليلية وتاريخية، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، 1983م.

6. كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان أو الإنسان لا يقوم وحده، ترجمة محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ط5، م1965.

7. المرابط ولد محمد لخديم، دين الفطرة/ استنطاق الرياضيات والفيزياء بلغة إنسانية، دار المعراج - دمشق، ط1، 2014م.

8. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ضبط وتقديم أ . د. محمد علي سلامة، ط1 - القاهرة، 2008م.

9. هانز ريتشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة د. فؤاد زكريا، مصر - الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة، ط1، 2007م.

10. د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول - الحصاد - الآفاق المستقبلية، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ط1، 2000م.

